الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلانهم الإيمان بما جاء به عيسى : « فاكتبنا مع الشاهدين » إنه الطلب الإيمانى العالى الواعى ، الفاهم . إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يبلغون رسالات الله وأنهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام : إنها الأمة التى حملها الله مهمة وصل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة . لماذا ؟ هاهو ذا القول الحق :

﴿وَجَـٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَـٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة الحج)

ولذلك فلن يأتى أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد ائتمن الله أمة محمد ؛ بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لذلك فلا نبوة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يخبرنا الحق :

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

إن الأشياء التى يدركها العقل هى مسميات ولها أسماء وتكون أولا بالحس ، لأن الحس هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتى المعانى عندما نكبر ونعرف الحقائق . إن البداية دائما تكون هى الأمور المحسة، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيمانى : إنه طريق مستقيم ، أى أن نعرف الغاية والطريق الموصل إليها،

وكلمة « الطريق المستقيم » من الأمور المحسة والتى يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة « مكر » ، مأخوذة من الشجر ، فساعة أن ترى الشجرة التى لا تلتف أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما ، هى من فرع ما . ولكنّ هناك نوع من الأشجار تكون فروعه ملفوفة على بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أى ورقة من أى فرع هى ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « المكر » . فالرجل الذى يلف ويدور ، هو الذى يمكر ، فالذى يلف على إنسان من اجل ان يستخلص منه حقيقة ما ، والذى يحتال من أجل إبراز حقيقة ، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الضرر فهذا هو المكر السيىء . ولذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

ومعنى ذلك أن هناك مكراً غير سيىء ، أى أن المكر الذى لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، فإننا نسميه مكرَ خير ، أما المكر الذى يقصد منه إيقاع الضرر فهو « المكر السيىء » . ولنا أن نسأل : ما الذى يدفع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذى يمكر يدارى نواياه ، فقد يظهر لك الحب بينما هو مبغض ، ويريد أن يزين لك عملا ليمكر بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بك أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل .

إذن ، فمن أسس المكر التبييت، والتبييت يحتاج إلى حنكة وخبرة ، لأن الذى يحاول التبييت قد يجد قبالته من يلتقط خبايا التبييت بالحدس والتخمين ، ومادام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف فى البشر لأن القوى لا يمكر ولا يكيد ولكن يواجه .

إن القوى لحظة أن يمسك بخصم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ، لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذى هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يملك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن تتكرر ، ولذلك فالشاعر يقول :

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت
كذلك قدرة الضعفاء

إن الضعيف هو الذى يمكر ويبيت . والذى يمكر قد يضع فى اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجح عقلا ، وقد ينكل به كثيرا ، لذلك يخفى الماكر أمر مكره أو تبييته . فإذا ما أراد خصوم المنهج الإيمانى أن يمكروا، فعلى من يمكرون ؟ إن الرسول لا يكون فى المعركة بمفرده ولكن معه الله .

﴿ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْـٰدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالله يعلم ما يبيت أى إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجده فلن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وساعة تجد صفة تستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى . إن المؤمنين بإمكانهم أن يقولوا للكافرين : إنكم إن أردتم أن تبيتوا لنا ، فإن الله قادر على أن يقلب المكر عليكم . أما أسماء الله وصفاته فهى توقيفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن نشتق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . فليس من أسماء الله مخادع ، أو ماكر ، إياك أن تقول ذلك ، لأن أسماء الله وصفاته توقيفية، وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر ، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله ، لأن الله إذا أراد أن يمكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول :

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » .

إذن فهناك « مكر خير » . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدى إلى الخير . ولماذا تأتى هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يجىء ليقاتل بالسيف ليحمى العقيدة ، إنما جاء واعظا ليدل الناس على العقيدة ، إن النصرة لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أى رسول أن يحارب فى سبيل العقيدة لأن السماء هى التى كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ولم يجىء قتال إلا حينما طلب بنو إسرائيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى أذن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس . إن السيف لم يأت ليفرض العقيدة ، إنما ليحمى الاختيار فى النفس الإيمانية ، فبدلا من أن يترك الناس

مقهورين على اعتناق عقيدة خاطئة. فالمسلمون يرفعون السيف فى وجه الظالم القاهر لعباد الله . وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم .

ولذلك فعندما يقول أعداء الإسلام : « إن الإسلام انتشر بالسيف » . نرد عليهم : إن الله قد بدأ الإسلام بضعف حتى يسقط هذا الاتهام ، لقد كان المسلمون الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فيتجه بعضهم إلى الحبشة ، ويهاجرون بحثا عن الحماية ، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف فلنا أن نسأل : من الذى حمل أول سيف ليكره أول مؤمن ؟ إن المؤمنين رضوا الإسلام دينا وهم فى غاية الضعف ومنتهاه . إن الإسلام قد بدأ واستمر ومازال يحيا بقوة الإيمان .

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء فى أمة أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ، وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أقوياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله عليه وسلم الضعفاء وخاض رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ، إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا ليفرض العقيدة ، ولكن ليحمى حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة . ولو أن الإسلام انتشر بالسيف . فكيف نفسر وجود أبناء لديانات أخرى فى البلاد المسلمة ؟ لقد أتاح الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن الإسلام قد انتشر بالأسوة الحسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفاه الله ليطبق السلوك الإيمانى ، فقد مكن الله للإسلام فى الأرض بالسلوك والقدوة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك فى سلوكه ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام إلى الإسلام ، ذلك أن اختلال توازن سلوك المسلم بالنسبة لمنهج الله هو ثغرة ينفذ منها خصوم الإسلام ، ولذلك فالمفكرون فى الأديان الأخرى حينما يذهبون إلى الإسلام ، ويقتنعون به ، إنما يقتنعون بالإسلام لأنه منهج حق . إنهم يمحصونه بالعقل ، ويهتدون إليه بالفطرة الإيمانية . أما الذين يريدون الطعن فى الإسلام ، فهم ينظرون إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

إن المفكرين المنصفين يفرقون دائما بين العقيدة ، ومتبع العقيدة ، ولذلك فأغلب المفكرين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادفوا تابعا للإسلام ملتزما دعاهم ذلك إلى أن يؤمنوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجمهرة الكثيرة الوفيرة فى البلاد الإسلامية المعاصرة فى بلاد لم يدخلها فتح إسلامى ، وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية فى أفراد تابعين ملتزمين ، فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة ورعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف ، كل ذلك لفت جمهرة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون : ما الذى جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قالوا : لأننا مسلمون . وتساءل الناس فى تلك المجتمعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام .

إذن ، فالذى لفت إلى الإسلام هو السلوك المنهجى الملتزم . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض منهج الدعوة الناجحة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة فصلت)

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح،ليدل المؤمن على أن ما يدعو إليه غيره قد وجده مفيدا فالتزمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان . ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إنما يعلن ويقول : « إننى من المسلمين » يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرونه على السلوك السمح الرضى الطيب . إنها لفتة من ذاته إلى دينه .

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع الناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، فصار سلوكهم الملتزم لافتا ، وعندما يسألهم القوم عن السر فى سلوكهم الملتزم ، يقول الإنسان منهم : أنا لم أجىء بذلك من عندى ولكن من اتباعى لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك فى السلوك الأسوة : المسلمون الأوائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يخافون عليه من خصومه ، فكانوا

يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للأخطار يتداولون ذلك فيما بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام على بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد على ـ كرم الله وجهه ـ أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذى يصده .

لاشك أنه كان يفعل ذلك لأنه واثق أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتداه بروحه . هذا هو التسامى العالى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنما يعود ذلك عليه بالخير العميم . وعندما يموت واحد منهم فى سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته فقد نال الشهادة فى سبيل الله .

هذا هو أبو بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله فى الغار . ألم يجد الصديق شقوقا فيمزع من ثيابه ليسد الشقوق ؟ ألم يضع قدمه فى شق لأنه يخشى أن تجيء حشرة من الحشرات قد تؤذى حضرة النبى صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولنفوسهم من بقائهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله نصرة رسوله على الكفار ، عندما مكروا وبيتوا أن يقتلوه قبل الهجرة ، وهكذا أراد الله نصر رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام فى القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكأن الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النصر من الله : لن تستطيعوا أن تقاوموا محمدا لا بالمواجهة ولا بالتبييت . وها هوذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضى الله عنه يهاجر علنا ، ويقول : من أراد أن تثكله أمه ، أو ترمل زوجته ، أو ييتم ولدُه ، فليلقنى وراء هذا الوادى . بينما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة للضعيف . إن القوى يستطيع حماية نفسه ويخرج إلى الهجرة مجاهرا . أما الضعيف فلابد أن يهاجر خفية ، لذلك فالأسوة للضعيف كانت فى رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله مكر بهم .

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إن مكرهم رغم عنفه وشدته والذى قد يؤدى إلى زوال الجبال ، هذا المكر يبور عند مواجهته لمكر الله الذى يحمى رسله وعباده الصالحين . لقد جاء مكر بنى إسرائيل وأنزل فيه الله قوله الحكيم : « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » . لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام . فقال الحق سبحانه :

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَٰمَةِ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

لقد جاء الحق سبحانه بعد عرضه لمسألة المكر بهذا القول الحكيم ، وذلك دليل على أن عيسى عليه السلام أحس من بنى إسرائيل الكفر ، والتبييت ، ومؤامرة للقتل فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة . « إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . إنها أربعة مواقف ، أرادها الله لعيسى ابن مريم عليه السلام .

ونريد أن نقف الآن عند كلمة قول الحق : « متوفيك » . نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع ، ثم تموت المعانى الأخرى فى اللفظ ويروج المعنى الشائع فنفهم المقصد من اللفظ . إن كلمة « التوفى » نفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة ، فإنه قد يغلب معنى على لفظ ، وهذا اللفظ موضوع لمعان متعددة ، فيأخذه واحد ليجعله خاصا بواحد من هذه . إن كلمة « التوفى » قد يأخذها واحدا لمعنى « الوفاة » وهو الموت . ولكن ، ألم يكن ربك الذى قال : « إنى متوفيك » ؟ وهو القائل فى القرآن الكريم :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن « يتوفاكم » هنا بأى معنى ؟ إنها بمعنى ينيمكم . فالنوم معنى من معانى التوفى . ألم يقل الحق فى كتابه أيضا الذى قال فيه : « إنى متوفيك » .

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

لقد سمى الحق النوم موتا أيضا . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق القرآن الكريم بين لنا أن كلمة « التوفى » ليس معناها هو الموت فقط ولكنْ لها معان أخرى ، إلا أنه غلب اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستقل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ عند هؤلاء لا ينصرف إلا لهذا المعنى ، ولهؤلاء نقول : لا ، لابد أن ندقق جيدا فى اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل : ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هى : لأن الأشياء التى قد يقف فيها العقل لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة ويأتى فيها الله بأسلوب يحتمل هذا ،

ويحتمل ذلك ، حتى لا يقف أحد فى أمر لا يستأهل وقفة . فالذى يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء ما الذى زاد عليه من أحكام دينه ؟ والذى لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رُفع ، ما الذى نقص عليه من أحكام دينه ، إن هذه القضية لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة للدين ، لكن العقل قد يقف فيها ؟ فيقول قائل : كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر : لقد توفاه الله . وليعتقدها أى إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر فى الأحكام المطلوبة للدين .

إذن ، فالأشياء التى لا تؤثر فى الحكم المطلوب من الخلق يأتى بها الله بكلام يحتمل الفهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل فى حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع . وعرفنا الآن أن « توفى » تأتى من الوفاة بمعنى النوم من قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ومن قوله سبحانه وتعالى :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتا لأن النوم غيب عن حس الحياة . واللغة العربية توضح ذلك ، فأنت تقول ـ على سبيل المثال ـ لمن أقرضته مبلغا من المال ، ويطلب منك أن تتنازل عن بعضه لا ، لابد أن أستوفى مالى ،وعندما يعطيك كل مالك ، تقول له : استوفيت مالى تماما ، فتوفيته ، أى أنك أخذته بتمامه .

إذن ، فمعنى « متوفيك » قد يكون هو أخذك الشىء تاما . أقول ذلك حتى نعرف

الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما يلتقى فى أنه سلب للحياة ، وكلمة « سلب الحياة » قد تكون مرة بنقض البنية ، كضرب واحد لآخر على جمجمته فيقتله ، هذا لون من سلب الحياة ، ولكن بنقض البنية . أما الموت فلا يكون بنقض البنية ، إنما يأخذ الله الروح ، وتبقى البنية كما هى ، ولذلك فرق الله فى قرآنه الحكيم بين « موت » و« قتل » وإن اتحدا معا فى إزهاق الحياة .

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾

(سورة آل عمران)

إن الموت والقتل يؤدى كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل ينهى الحياة بنقض البنية،ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا . لكن لا أحد يستطيع أن يقول : « أنا أريد أن يموت فلان » ، فالموت هو ما يجريه الله على عباده من سلب للحياة بنزع الروح . إن البشر يقدرون على البنية بالقتل ، والبنية ليست هى التى تنزع الروح ، ولكن الروح تحل فى المادة فتحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت وترم أى تصير رمة .

إذن ، فالقتل إنما هو إخلال بالمواصفات الخاصة التى أرادها الله لوجود الروح فى المادة ، كسلامة المخ أو القلب . فإذا اختل شىء من هذه المواصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : « أنا لا أسكن هنا » . إن الروح إذا ما انتزعت ، فلأنها لا تريد أن تنتزع . . لأى سبب ولكن البنية لا تصلح لسكنها . ونضرب المثل ولله المثل الأعلى :

إن الكهرباء التى فى المنزل يتم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذى يصدر منه الضوء . إن المصباح لم يأت بالنور ، لأن النور لا يظهر إلا فى بنية بهذه المواصفات بدليل أن المصباح عندما ينكسر تظل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب . وكذلك الروح بالنسبة للجسد . إن الروح لا توجد إلا فى جسد له مواصفات خاصة . وأهم هذه المواصفات الخاصة أن تكون خلايا البنية مناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن تدليكه قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن

فسدت خلايا المخ ، فكل شيء ينتهى لأن المواصفات اختلت .

إذن ، فالروح لا تحل إلا فى بنية لها مواصفات خاصة ، والقتل وسيلة أساسية لهدم البنية ؛ وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم البنية ، ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى . ولكن خلق الله يقدرون على البنية ، لأنها مادة ولذلك يستطيعون تخريبها .

إذن ، « فمتوفيك » تعنى مرة تمام الشيء ، « كاستيفاء المال » وتعنى مرة « النوم » . وحين يقول الحق : « إنى متوفيك » ماذا يعنى ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن يقول : أريدك تاما ، أى أن خلقى لا يقدرون على هدم بنيتك ، إنى طالبك إلى تاما ، لأنك فى الأرض عرضة لأغيار البشر من البشر ، لكنى سآتى بك فى مكان تكون خالصا لى وحدى ، لقد أخذتك من البشر تامًا ، ومعنى « تاما » ، أى أن الروح فى جسدك بكل مواصفاته ، فالذين يقدرون عليه من هدم المادة لن يتمكنوا منه .

إذن ، فقول الحق : « ورافعك إلىّ » هذا القول الحكيم يأتى مستقيما مع قول الحق : « متوفيك » . وقد يقول قائل : لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ نقول : إن الحق بجلال قدرته كان قادرا على أن يقول : إنى رافعك إلىّ ثم أتوفاك بعد ذلك . ونقول أيضا : من الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ ألم يقل الحق سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القمر)

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن « الواو » تفيد الجمع للحدثين فقط . ألم يقل الله فى كتابه أيضا :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن « الواو » لا تقتضي ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك قد أخذت « متوفيك » أى « مميتك » ، فمن الذى قال : إن « الواو » تقتضى الترتيب فى الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت « متوفيك » أولا ؟ نرد على ذلك : لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة من الموت . ولكن عيسى سيموت قطعا ، فالموت ضربة لازب . ومسألة يمر بها كل البشر . هذا الكلام من ناحية النص القرآنى . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فوّض رسوله صلى الله عليه وسلم ليشرح ويبين ، ألم يقل الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة النحل)

فالحديث كما رواه البخارى ومسلم : (كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم) ؟ .

أى أن النبى صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سينزل مرة أخرى . ولنقف الأن وقفة عقلية لنواجه العقلانيين الذين يحاولون إشاعة التعب فى الدنيا فنقول : يا عقلانيون أقبلتم فى بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق فى الإيجاد والميلاد ؟ سيقولون نعم . هنا نقول : إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشىء عجيب خارق للنواميس فكيف تقفون فى نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس ؟ . إن الذى جعلكم تقبلون العجيبة الأولى يمهد لكم أن تقبلوا العجيبة الثانية . إن الحق سبحانه يقول :

﴿ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة ال عمران)

إنه سبحانه يبلغ عيسى إنى سآخذك تاما غير مقدور عليك من البشر ومطهرك من خبث هؤلاء الكافرين ونجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة . وكلمة « اتبع » تدل على أن هناك «مُتبعًا » يتلو مُتبعا . أى أن المتبَع هو

الذى يأتى بعد ، فمن الذى جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أى منهج يكون الذين اتبعوك ؟ أعلى المنهج الذى جاؤا به أم المنهج الذى بلغته أنت يا عيسى ؟ إن الذى يتبعك على غير المنهج الذى قلته لن يكون تبعا لك ، ولكن الذى يأتى ليصحح الوضع على المنهج الصحيح فهو الذى اتبعك .
وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المنهج كما أراده الله . « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . فإن أخذنا المعنى بهذا ؛ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هى التى اتبعت منهج الله الذى جاء به الرسل جميعا ، ونزل به عيسى أيضا ، وأن أمة محمد قد صححت كثيرا من القضايا التى انحرف بها القوم . نقول ليس المراد هنا من « فوق » الغلبة والنصر ، ولكننا نريد من « فوق » الحجة والبرهان . وذلك إنما يحدث فى حالة وجود قوم منصفين عقلاء يزنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة الإسلام .

إذن ، فالفوقية هى فوقية ظهور دليل وقوة برهان . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة التوبة)

وفى موقع آخر من القرآن الكريم ، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة الفتح)

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان . وقد يقول قائل : إن فى العالم أديانا كثيرة ، ولم يظهر عليها الإسلام ، والموجودون من المسلمين فى العالم الآن مليار وأضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى . نقول لمثل هذا القائل : إن

الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة ، لا من قِبَلكم أنتم فقط ولكن من قَبْلهم هم كذلك . والناس دائما حين يجتمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح بعضهم بعضا ، يلجأون أخيرا إلى الإسلام . فلننظر إلى من يشرع من جنس تشريع الأرض ولنسأل أرأيت تشريعا أرضيا ظل على حاله ؟ لا ، إن التشريع الأرضى يتم تعديله دائما .

لماذا ؟ لأن الذى وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يدله على مقتضيات الأمور التى تجدّ ، فلما جَدّت أمور فى الحياة لم تكن فى ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولنمسك بأى قانون بشرى معدل فى أى قضية من قضايا الكون ، ولننظر إلى أى اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت فى أوربا ضجة على الطلاق فى الإسلام ، ما الذى حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق فى إيطاليا تحت سمع وبصر الفاتيكان . هل شرعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق ؟ لا ، إنما شرعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق ، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بدليل أن أوربا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تتأتى إلا به .

وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذى يأتى من الخصم ؟ تلك هى الغلبة . لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهيتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفى الربا ، الذى يريد البعض هنا أن يحلله ، تجد أوربا تحاول التخلص منه ، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدى وظيفته فى الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى صفر. أى أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضرورى حتى يؤدى المال وظيفته الحقيقية فى الحياة ، والذى ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا ، فأرادوا أن يمنعوا الربا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهورا ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، ففهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة اضطرهم إلى الأخذ بمبادىء الإسلام . ونتابع بالتأمل قول الحق : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » . أى أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا . فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من ألوهية ، هل

اتبعوك ؟ لا . . لم يتبعوك .

إن الذى يتبع عيسى هو الذى يأتى على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بنى إسرائيل . وديانات السماء لا تأتى لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ، ولكن المنهج هو الذى يربط الناس بعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لنتعرف على هذه المعانى . لقد وعد الله سيدنا نوحا أن ينجى له أهله . وعندما دعا نوح عليه السلام ابنه ليركب معه : ولكن ابن نوح رفض ، فقال نوح عليه السلام لله :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة هود)

فهل الأهلية بالنسبة للأنبياء هى التى قالها نوح هل أهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال :

﴿ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها. فالذين اتبعوا المنهج الذى جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودى إن هذه أسماء فقط . إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء ميراثهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم على سلمان وهو فارسى لا يجتمع مع رسول الله فى أرومة عربية :

(سلمان منا آل البيت)[1] .

---

(١) هذا الحديث رواه الحاكم والطبرانى فى الكبير .

وهكذا انتسب سلمان إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وبنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : « وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » ، أى أن الحق سبحانه قد جعل الفوقية للذين يتبعون المنهج الحق القادم من عند الله . والذى يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله. هل تكون الفوقية هى فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعة من الأرض التى تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . . فالفوقية تكون فوقية دليل .

وقد يقول قائل : إن الدليل لا يلزم . نرد قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسيرون فيها يقننون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء . ومادام هنا فى هذه الآية كلمة « فوق » وكلمة « كفروا » وهناك أتباع ، إذن ، فهناك قضية وخصومة ، وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى، وهناك ضلال . فلابد من الفصل فى هذه القضية . ويأتى الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على سواه .

إن الظالمين يستطيعون التصرف فى الأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فالله يقول : أنا ملكتكم وأنتم عصاة لى فى كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت تزول فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . . فالظالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميعا إرادات ومرادات اختيارية . لكن فى يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله :

﴿ يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة غافر)

إذن فالحكم قادم بدون منازع . . والذى يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إن الذى اتبع واحدا على ضلال يأتى يوم القيامة ليجد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يارب ارجعنا إلى الدنيا لننتقم ممن خدعونا . هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، فسوف نجد شهادة الجلود والألسنة والأيدى ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والحواس لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والحواس : لقد كانت لصاحبى إرادة ترغمنى على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن الملك كله لله . . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : « ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون » .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هى ماذا ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . . لكن ثمرة الحكم هى الجزاء . ففى الآخرة لا عمل هنالك ، والحكم فيها للجزاء . وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعه ، وإلى الله مرجعهم ، فلابد لنا أن نرى ما هو الحكم الذى سوف يكون ؟ ها هوذا القول الحكيم :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إنهم بإيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولنتنبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب فى الآخرة فقط ولكنه يشتمل على العذاب فى الدنيا أيضا ، فعذاب الدنيا سيكون قبل الحكم ،

وكأن الحق يقول لنا : لا تعتقدوا أن تعذيبى إياهم فى الدنيا يعفيهم من تعذيبى إياهم فى الآخرة ، لأن التعذيب فى الدنيا فقط قد يصيب من آمن بى .

أما من كفر بى ، فإنى أعذبه فى الدنيا وأعذبه فى الآخرة. إننى لا أؤجل العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحصيلة بعد كل شىء هى أن يعذب الكافر فى الدنيا وفى الآخرة . ويقول الحق عن هذا العذاب : إنه عذاب شديد ؛ لأن الحدث حين يقع لابد أن تلحظ فيه القوة التى تناسب من أحدث . ولنضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى :

إن الطفل قد يكسر شيئا فى حدود قوته كطفل ، والشاب قد يكسر شيئا مناسبا لقوته . إذن فالحدث يجب أن نأخذه قياسا بالنسبة لفاعله ؛ فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذى يهزمه الله ويعذبه لا ناصر له ، وبعد ذلك يأتى الحق بالمقابل :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى فمادام الذين كفروا سينالون العذاب الشديد من الله ، فالذين آمنوا سينالون النعيم المقيم بإذن الله .